إســـــــــهام
عمان في التواصل الحضاري بين الشعوب

بقلم : سعادة : مال الله بن علي بن حبيب اللواتي
مستشار وزارة التراث القومي والثقافة

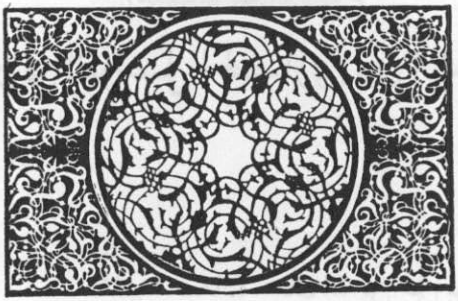

ان المحور الـذي اعتمدتـه هذه الندوة هـو أهمية عمان لطـرق الحرير. وقبل الدخول في صلب البحث نلقي شيئـا من الضوء على الصفات والمميزات التي أضفت هذه الأهمية على عمان.

أولا: من أهم مـلامح هـذه الأهميـة مـوقع عمان الجغـرافي بين قـارتي آسيـا وأفريقيا وامتداد جزئها الشمالي إلى مدخل الخليج العربي الذي يفضي إلى العراق والهلال الخصيب.

ثانيا: مـوقع بعض موانئها على بحر عمان مثل مسقـط وصحار بحيث كان الاول يـوفر ملجأ آمنـا يقي السفن من هيجان البحـر والثاني أي صحـار يوفـر للمسافرين أسباب الإعاشةوالمؤن والسلع التجارية المعدة للتصدير.

ثالثا: استفـادة ربابنة السفن من خبرة العمانيين بالبحـر وشئون الملاحة من جهة وحسن المعاملة التي كان يلقاها الوافدون من أهل عمان.

التجارة البحرية العمانية:

لا غرو ولا عجب في اكتساب العمانيين هذه الخبرة الواسعة في فنون الملاحة وفي اتساع تجارتهم عبر البحار. فإنهم ركبوا البحر منذ أن عرف الانسان السفينة والشراع. وكانت السفن العمانيـة تصل بلاد مـا بين النهرين في الألف الثـالثة قبل الميلاد. فقد مدح سارغون الملك الأكدي في تلك الحقبة السفن الراسية في ميناء أكد في العـراق والقادمة من ماغـان وهو الاسم الذي أطلقه السـومريون على عمان.

وفي الألف الثـانيـة قبل الميـلاد كـانت السلع التجـاريـة تنقل من عمان إلى موهينجـودارو في الباكستان حيث كانـت تزدهر حضارة حـوض نهر الاندلس آنذاك. ويقول مؤلف كتاب «الطواف حول بحر اريتريا» الذي صدر في القرن الأول للميـلاد بأن عمان كـانت تستـورد ألـواحـا من الخشب من الهنـد لصنع السفن. وان السفن المخيطـــة كـــانـت تصـــدر من عمان إلى اليمـن في ذلك الوقت.. وقـد اكتشفت في وادي ميسر بالمنطقة الشرقيـة اختام من الطين على شكل كمثـرى تعـود إلى الألف الثانيـة ق.م ويعتقـد أن لهذه الأختـام علاقـة بتجارة التصدير. وتوجد كذلك شواهد للتجارة البحرية خلال هذه الفترة بين

عمان ومصر فقد اكتشفت على جدران معبد الدير البحري في جنوب مصر رسوم لسفن جاءت من عمان محملة باللبان والمر والعطور والاخشاب بناء على طلب الملكة الفرعونية حتشيبسوت التي حكمت مصر في أواخر القرن الخامس عشر ق . م .

يقول صاحب كتاب التجارة والحضارة في منطقة المحيط الهندي بأن المرحلة الاخيرة لنقل السلع من الشرق الاقصى والهند إلى الشرق الاوسط وافريقيا كانت تقطع براً . فقد كانت السفن تفرغ حمولتها في ميناء الأبله بالقرب من البصرة بعد اجتياز الخليج العربي في سفرها إلى الشرق الاوسط وآسيا الوسطى ، أو في ميناء الاسكندرية عندما تكون وجهتها إلى افريقيا . وفي كلا الحالين تتوقف السفن في مسقط أو صحار للتزود بالمؤن والانتظار للرياح المواتية قبل استئناف السفر . ومن البديهي أن يتبادل الوافدون السلع التجارية فيما بينهم .

أما الجانب الآخر لاهمية عمان لطرق الحرير ولا سيما الطريق البحري فهو اسطولها البحري الذي كان له دور أساسي في توسيع علاقات هذا القطر على صعيد التجارة الخارجية . ولا مجال هنا للتفاصيل حول نشاط عمان البحري التجاري والعسكري منذ العصور الوسطى بل نكتفي بايراد لمحات مختصرة للبرهنة على مدى هذا النشاط فمثلا في عام ٧٥٠م وصل أبو عبيدة عبدالله بن القاسم من عمان إلى مدينة كانتون وله في هذه المدينة أعمال رائعة يذكرها المؤرخون الصينيون . وفي ٨٦٠م أرسل الامام الصلت بن مالك اسطولا حربيا لمحاربة الاحباش في جزيرة سقطره استجابة لاستغاثة سيدة عمانية كان الاحباش قد زجوا بها إلى السجن . وقد كان النصر حليف جيش الامام بحيث تم طرد الاحباش من تلك الجزيرة . وفي ٩٤٢م احتل العمانيون ميناء الأبله وهي مدينة المحمرة الحالية ثم احتلوا مدينة البصرة عام ١٠٣٩م . وقد لعب الاسطول البحري العماني دورا مشرفا في مقارعة الغزو البرتغالي وطردهم من منطقة الخليج ثم تحرير بلدان الساحل الافريقي الشرقي من ربقتهم وبسط الحكم العماني على تلك المنطقة لاكثر من مائتي عام .

ولا يمكن اختتام الحديث عن النشاط الملاحي العماني دون ذكر المعلم العلامة أسد البحار شهاب الدين أحمد بن ماجد السعدي الذي حوى من

علوم البحر ما لم يحوه غيره. فهو الذي طور البوصلة الملاحية وكانت تسمى «الحقة» أي الصندوق وله مؤلفات عديدة اشهرها كتابه « الفوائد في علم البحار والقواعد » و« ثلاث أزهار في معرفة علم البحار » وقد ترجم الاول إلى اللغة الانجليزية بقلم جي. آ. تيبيت تحت عنوان The Arab Navigation وفيه يبين المؤلف ما بلغه العرب من التقدم في فنون الملاحة البحرية. ومدى تأثر الاوروبيين وبالاخص البرتغاليين بالافكار والتقاليد التي سنها العرب في تطوير المهارات الملاحية. ويقول أحد القادة الاتراك ان احمد بن ماجد هو أفضل ربان عرفه الساحل الهندي على مدى القرنين الخامس عشر والسادس عشر في المهارة والنزاهة. ويصفه المؤرخ البريطاني Richmand Burton بأنه مخترع البوصلة الحديثة. أما قصة إرشاده للرحالة البرتغالي فاسكو دي جاما إلى طريق الهند عبر مضيق رأس الرجاء الصالح عام ١٤٩٨ فمعروفة.

وصول السفن العربية إلى الصين

هناك نقطة مهمة في تأريخ الملاحة بين الخليج والصين نتوقف عندها قليلا فالمؤرخون مثل البلاذري والمسعودي وغيرهما الذين يؤرخون الفترة ما قبل القرن الثالث عشر يكثرون من ذكر: السفن الصينية أو سفن من الصين أو مراكب الصين. ويفهم من ظاهر هذه العبارات أن سفنا مصنوعة في الصين كانت ترتاد مياه الخليج قبل القرن الثالث عشر إلا ان الباحث الانجليزي William Facy قد أوضح هذا اللبس استنادا إلى عدد من المصادر واثبت بأن سفن الصين لم تصل إلى الخليج إلا في منتصف القرن الثالث عشر. أما قبل ذلك فكانت هذه السفن تتوقف في موانىء الهند مثل كالم مالى ومالابار وكيلون حيث كانت تفرغ حمولتها من البضائع الصينية وتتزود بالبضائع التي تحتاجها الصين. وإلى هذه الموانىء كانت تأتي السفن العربية من البصرة وسيراف وعمان. ولا يذكر هذا الباحث شيئا عن وصول السفن العربية إلى الصين. إلا أن المؤرخين يشيرون إلى وصول شخصيات عربية إلى الصين منذ القرن الثامن الميلادي. ويذكر المسعودي في مروج الذهب مثلا أن النشاط العماني في ميناء مالابار بشبه جزيرة الملايو ازداد بعد وقوع انقلاب ضد أسرة نانج في كانتون عام ٨٧٨م وامتناع السفن العمانية عن الوصول إلى هناك. وبسبب ازدياد النشاط العماني

أصبح ميناء مـالابار ملتقى للسفن العمانية والصينية . وفي قـول المسعودي هذا دلالة على ارتياد السفن العمانية ميناء كانتون قبل وقوع هذا الانقلاب فيها .

أهمية صحار ومسقط

أعود إلى نقطة البدء لشرح الدور الذي كانت تلعبه مدينة صحار في توسيع علاقات عمان الخارجية . فصحار تقع خارج الخليج وبالقرب من مضيق باب المندب والبحر الاحمر. ولا تتأثر بالـرياح الموسمية التي تهب على الهند في فصل الصيف . ومن النـاحية الأخـرى كانـت تتوفـر في صحار الميـاه العذبـة والمواد التموينية . وتزدهر فيها صناعة الغزل والنسيج حتى نسب إلى صحار نوع معين من الثياب فقيل ثوب صحاري . ويذكـر ابن هشام في كتابه « السيرة النبوية» بأن الـرسول عليه أفضـل الصلاة والسلام كفـن في ثوبين صحاريين وبـرد من الحيرة . وراجت في صحار صنـاعة الزجاج فكانـت تصدر القوارير الـزجاجية منها إلى اليمن وافريقيا في القرن الثامن الميلادي . ويقول السير دونالد هولي في كتـابـه «عمان ونهضتهـا الحديثـة» بأن صحـار كـانت أغنى مـدينـة في العـالم الاسلامي في القـرن العاشر للميلاد وكان في مينـائها مرسى للسفن طولـه ستة كيلومترات . وقال المقدسي المتوفى عام ألف للميلاد في كتابه «أحسن التقاسيم في معرفـة الاقاليم» ما يلي : صحار هـي دهليز الصين وخزانة الشرق ودعـامة (أو مغوثة) اليمن .

أهمية مسقط

ورد ذكـر هذه المدينـة ومينـائهـا الذي أسماه بعض المؤرخين بـالميناء الخفي لاحتجابه عن بحر العرب ولصـلاحه كملجأ للسفن ، أقول ورد ذكر مسقط في معظم الكتب التي تناولت الحركـة التجاريـة بين آسيا وافريقيـا من جهة وبين الشرق الاوسط وأوروبا من الجهـة الأخرى . فقـد ذكر ابن الفقيـه الهمداني بأن مسقط ميناء تبحـر منه السفن إلى الهند وما وراءها . وأشـار المقدسي إلى سفن يمنيـة ترسـو في ميناء مسقط . وفي تأريخ المستبصر لابن المجـاور بأن مسقط كانت تصدر السلع إلى بارياهار في الهند وإلى كرمان وسجستان في أواخر القرن السابع الهجري .

ويعتقد أن مسقط كـانت نقطة الانطلاق لاسطول الامام غسـان بن عبدالله

اليحمدي لصد القراصنة الهنود الذين كانوا يتعرضون للسفن في مياه الخليج في أوائل القرن الثالث الهجري. وفي هذه الحقبة كانت المراكب من سيراف تزور مسقط للتزود بالمياه والمؤن وهي في طريقها إلى الهند. أما العلامة أحمد بن ماجد فيقول عن مسقط في نهاية القرن الخامس عشر بأن مسقط هي الميناء الأول لعمان وتأتي إليها السفن كل عام لتتزود بالمؤن والفواكه.

دراسة طرق الحرير

خلافا للعنوان الذي اختارته اليونسكو والمقتصر على الحرير فإن آفاق الدراسة تمتد إلى أبعاد علمية واسعة مستقصية الافرازات المختلفة التي خلفتها الرحلات التجارية ما بين بلاد العالم منذ الأزمنة الغابرة ولذا فقد أطلق المسؤولون المعنيون على هذا المشروع عنوانا تعبيريا فأسموه دروب الحوار بين الحضارات. وتعنى هذه الدراسة كذلك بتقييم عملية احتكاك الشعوب ببعضهاوالمعطيات التي ورثها الجيل الحاضر من هذه العملية ثم يعنى بفهم التيارات الفكرية المترددة بين الشرق والغرب ودراسة تأثيرها على مسار الحضارة الانسانية.

أهداف دراسة طرق الحرير:

بعد إتمام الإستقصاء لهذه العوامل سيسعى المسؤولون في اليونسكو وخارجها إلى تحقيق الأهداف التالية من بين أهداف أخرى مثل:

١ ـــ خلق وتنمية الاحساس لدى أفراد الجيل المعاصر بضرورة ايجاد قنوات فاعلة لحوار بناء بين الشعوب عبر تبادل الزيارات والاتصال المباشر والتبادل الثقافي والتجاري.

٢ ـــ خلق القدرة في النشء الصاعد من الشباب لادراك مصداقية الفضيلة والتمسك بها و إدراك متاهات الرذيلة وتجنبها. وذلك عبر ما سينشر من مطبوعات وغيرها.

٣ ـ مواجهة مشاكل الحياة وطرح حلول لها ليس في المجتمع الذي يعيش فيه الفرد فحسب بل وفي المجتمعات الاخرى كذلك اي خلق شعور لدى الفرد بأنه جزء من كل بالنسبة إلى المجتمع البشري الكبير.

٤ ـــ توظيف التفاعلات التي تنشأ بين الامم في ميادين العلوم والفنون والمعتقدات وتوظيف المعطيات فيها لصالح الترابط بين أفراد المجتمع البشري.

هذا هو الوجه الحضاري لدراسة طرق الحرير وستساهم الاصدارات العلمية المختلفة التي ستنشرها اليونسكو بطرق متعددة بعد إتمام المشروع في تعميم فوائد هذه الدراسة على عدد كبير من سكان هذا الكوكب ولا شك أن المادة العلمية الغزيرة والوسائل الحديثة الفعالة التي ستعتمدها منظمة اليونسكو ستنجح في إبلاغ هذه الرسالة الانسانية الحضارية النبيلة إلى عدد كبير من بني البشر لبناء مستقبل أفضل.

والله ولي التوفيق والسلام عليكم.

المراجـــــــــــع

* مختصر كتاب البلدان لابن الفقيه الهمـداني سنة ٣٠٠هـ/ ٩١٢م طبعة ليدن ١٣٠٢هـ
* أحسن التقـاسيم في معـرفـة الأقـاليـم طبعـة ليـدن ١٩٦٧ المقـدسي ٩٤٦/ ١٠٠٠م.
* سلسلة التـواريخ : سليمان التاجر وابـو زيد الحسن السيرافي (القـرن الثالث الهجري) طبعة باريس ١٨٤٥ .
* ثلاث ازهـار في معرفـة علم البحار: لأحمد بن مـاجد السعـدي العماني سنة ٩١٠هـ/ ١٥٠٤م ـ طبعة القاهرة ١٩٦٩ .